مصر والتحرر من الظلم والاستعباد

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا

سيداتى سادتى :

استحيا لى أن أشكر قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأمريكية على تلك الروح الجميلة التى لا تفتأ تبعثها فى الثقافة المصرية . ففى كل عام نرى نشاط فريدا فى نوعه من مدير الجامعة الدكتور وطسن ، ذلك المثل الفذ الذى وإن تقدمت به السن فانه لا يزال يتمتع بهمة عظيمة جعلته يخطو فى كل يوم بالجامعة التى يشرف عليها خطوات وئيدة موفقة بفضل معاونة رئيس الخدمة العامة وسكرتيرها الفاضلين .

فى الماضى القريب رأينا سلسلة من المحاضرات من نخبة من رجالات مصر عن موضوع "مصر بعد ربع قرن" ثم رأينا سلسلة أخرى عن موضوع "الثقافة فى مصر وفى العالم" ثم سلسلة عن آراء العام من نواحيه المختلفة وغيرها وغيرها .

وكل هذه المحاضرات سواء منها ما كان يلقى فى قاعة يورث أو فى القاعة الشرقية ، يؤدى باللغة العربية من رجال كلهم ذوو مكانة فى الرأى العام المصرى على . مستمعين مصريين فالجامعة الأمريكية إذ تنظم تلك المحاضرات تعطى مثلا أعلى فى التعاون بين الأمم وتبرهن على أنه إذا وجدت الرغبة الصحيحة أمكن التغلب فى سبيل هذا التعاون على جميع فروق الدين واللغة والجنس .

والآن تنظم سلسلة وإن كانت أقل عددا إلا أن مواضيعها قد تكون أدخل فى الحياة المصرية وأشد مساسا لها فهى عن مصر والتحرر من العوز والفقر ، ومصر وحرية العبادة ، ومصر وحرية الرأى ، ومصر والتحرر من الظلم والاستعباد ، الذى هو موضوعنا اليوم .

والظلم والاستعباد إما أن يكون ظالم دولة لدولة ، أى خارجيا ، أو ظلم حكومة لفرد أو فرد لفرد أى داخليا . ويبدو لى أن موضوع اليوم يتضمن الكثير من المواضيع الأخرى . فمن البديهى أن التحرر من الظلم والاستعباد يتضمن حتما التحرر من الفقر والعوز كما يتضمن التمتع بحرية الرأى وحرية العقيدة ، فان لم يتوفر عنصر من تلك العناصر فلا يمكن لحر أن يتحدث عن شعب لا يتمتع باحدى تلك الحريات بأنه حر من الظلم والاستعباد إلا إذا كان القائل عبدا بطبعه أو طاغية لا ينظر لشىء إلا من ناحية مصلحته .

ولقد وكلت الجامعة الكلام فى ثلاثة من الموضوعات الأولى الى ثلاثة من قادة الفكر فى مصر فلا حاجة بى إلى أن أمس شيئا من مواضيعها وسأقتصر على الكلام عما عداها .

ألقيت هذه المحاضرة فى الجامعة الأمريكية .

سيداتي وسادتي

ما هو الظلم والاستعباد وما هو العدل والحرية ؟ ألفاظ تلوكها الألسن باستمرار دون أن يكون لها مدلول بذاته ، أو معنى محدد بعينه في نظر قائلها ، ذلك أن مدلولها يتغير بحسب الأزمان وما يلازمها من التطورات الاجتماعية وبحسب الظروف بل والمناسبات ، فما يعد اليوم ظلما قد يكون في اعتبار الناس وفي عهد من العهود عدلا .

ففي العهود القديمة كان للوالد حق الحياة والموت على أولاده وكانوا ينظرون الى هذا باعتباره عدلا طبيعيا لأنه يتفق في نظرهم مع الحقوق الطبيعية للأبوة . كما أن وأد البنات قبل الاسلام كان عملا مشروعا وعادلا باعتباره دفاعا عن أقدس حق في نظر مدعيه من العرب ، هو العرض . كذلك كان الرق نظاما عادلا باعتباره نتيجة طبيعية لحق الغزو والفتح لمن يدري فربما كان الرق في عرف تلك الأزمان نظاما أساسه الرأفة والرحمة والانسانية ، إذ الأصل كان قتل الأسير فلما رق الشعور الانساني استعاض عن القتل بالرق حماية للأرواح أن تزهق باطلا .

وما نقوله عن الظلم والعدل نقوله بعينه عن الاستبداد والحرية أو إن شئت فقل الطغيان والديمقراطية ، بأن ما يعتبر في عهد مستهجنا لحالة قد يعتبر في عهد آخر استبدادا لا يطاق ، وليت هذا الخلاف كان قاصرا على العصور الخالية بل إنه تجاوزها الى عصور قريبة منا . وإليكم ما قاله الأستاذ عزيز بك خانكي في مؤلفه المفيد (نفحات تاريخية عن ولاية العهد) :

" توفي محمد الأول فتولى ابنه مراد الثاني السلطنة بحكم أرشديته وبحكم صغر أخويه الرضيعين وبحكم سبق سجن عمه مصطفى في جزيرة لمنوس تحت حراسة الامبراطور اليوناني . ولما كبر أخواه الصغيران اعدم أحدهما شنقا وأعدم الثاني خنقا .

" توفي مراد الثاني فتولى ابنه محمد الثاني (الذي فتح القسطنطينية في ٢٩ ما يو سنة ١٤٥٣ وكان لمحمد أخ لأب رضيع من أم مسلمة هي أميرة فرانسوغانيا اسمها مارا أما هو فكانت أمه مسيحية (أميرة سينوب) خوفا من أن الشعب يأبى في المستقبل ، يفضل ابن المسلمة على ابن النصرانية أمر بقتل أخيه لأبيه الرضيع . وللوصول الى قتله احتال على الأم واستدعاها عنده في السراي وبينما هي ماشية أمامه كان رسوله قد تسلل داخل السراي وأخذ الرضيع وأغرقه داخل الحمام . ثم لنفي الشبهة عنه أمر بقتل رسوله حتى لا يذيع له سرا .

" في أثناء حكمه أصدر قانونا أباح فيه لكل سلطان أن يقتل أخوته ليمنع كل منافسة ولو محتملة له في الملك . وقال في ديباجته إن سلامة الدولة تقتضيه وأن معظم الفقهاء أفتوه بأنه يحق لمن يتولى السلطنة من أولاده أو من أولاد أولادي أن يقتلوا إخوتهم لتضمن قوبهم على الملك وأنه يوصي أولاده وأولاد أولاده بأن يعملوا بأحكام هذا القانون .

ليس منا من لم يرى في حياته كثيرا من التطورات السياسية والاجتماعية في هذا المعنى ؛ ومن الغريب في الطبع البشرى أن الانسان كلما أدرك غاية من الغايات وظن أنه وصل إلى المثل الأعلى الذى كان ينشده وحقق السعادة التى كان يبتغيها انكشف له الأفق عن غاية أخرى أبعد مدى يسعى الى تحقيقها حتى اذا ما تحققت له لم يلبث أن يتسع أمامه الأفق من جديد ، وهكذا لا نجد حدا ثابتا للآمال البشرية ولا لمعنى الحرية . ففى الولايات المتحدة وهى على ما نقرأ ونسمع بلغت أعلى درجات الحرية والرخاء والكنها عندما وصلت الى ماهى فيه بدأ البعض ينشق للتقدم الى الأمام من جديد ، والآن نقرأ الشكوى المريرة من ظلم العمال والاستبداد بهم وقد نشرت مجلة المجتمع الأمريكى للعلوم الاجتماعية والسياسية مقالا لكاتب اقتصادى ينعى فيه حرية العمال فى المدن التابعة للشركات ، ولعلى لا أجاوز الحقيقة كثيرا إذا قلت إن الأصل فى إنشاء تلك المدن كان لترغيب العمال فى العمل بتوفير اسباب العيشة السهلة لهم كما هو الحال فى إنشاء العزب عندنا أى أن الأصل كان لمساعدة العامل ومساعدته فى عيشته ، واليكم ما قاله هذا الكاتب :

تحوى إحدى هذه المدن ما بين إحدى عشر ألف أو إثنى عشر ألف نسمة وجميع الأملاك فيها ملك للشركة تدفع عنها جميع الضرائب . ويسكن كل عمال المناجم فى منازل الشركة وجميع موظفى المدارس ومن يقومون بالتعليم فيها هم موظفون تابعون للشركة كما أن جميع شئون المدينة يتولاها موظفو الشركة ويصدر مراقب الشركة جميع القواعد والأنظمة الواجب اتباعها ويتولى أعمال البوليس موظفون تدفع أجورهم الشركة ويتبعون إرشاداتها لدرجة عظيمة ، وقد زيدت قوات البوليس عندما حاول اتحاد المناجم تنظيم الاقليم فى سنة ١٩٣٦ . أضيف إلى ذلك أن الشركة تحتفظ فى تلك المدينة بذخيرة لا تقتصر على المسدسات بل تحتوى بجانبها عددا من البنادق والقنابل والغازات . ثم هى تضع بشدة أى محاولة مشروعة لعقد اجتماعات سلمية . كذلك كان المتحدثون فى الإذاعة يهددون ، والمنازل تفتش بغير أمر قضائى لمصادرة الكتب الجائز تداولها قانونا ، بل كان يطرد من يوجد عنده شىء منها ولا يسمح للعمال باستيضاف من يريد بل يضطهد من يشتبه فى أن لهم ميولا نقابية اضطهادا مريعا لم يخل من القتل فى بعض الأحيان " .

وكما ينعى هذا الكاتب الاقتصادى عدم تمتع العمال بالحرية الكافية كذلك ارتفعت شكوى رجال التعليم مما يفرض عليهم من قيود جعلتهم يضجون بالشكوى ويعقدون المؤتمرات للدفاع عن حقوقهم باسم الحرية والديمقراطية بل اسم المصلحة الوطنية العليا . وإليك ما قرره أحد المؤتمرات بعد مناقشات دامت أربعة أيام فى هارفارد .

يجب أن يكون مفهوما من معنى حرية العلم :

أولا — أن يترك فى تعيين المعلمين كل اعتبار دينى أو سياسى أو خلافهما من الاعتبارات غير التعليمية .

ثانيا — يجب أن يكون للمعلم الحق فى استعمال الطريق التى يراها أكثر إنتاجا فى التعليم بشرط أن يحافظ على مستوى الدرجات وأن يراعى مقدرة الطلاب على الاستيعاب .

ثالثا — يجب أن يكون لكل معلم الحق فى أن يعبر عن أى رأى يراه بشرط أن يكون واضحا تماما أنه يعبر عنه باعتباره رأيا من الآراء باعتباره حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل .

وأخيرا يجب أن يكون للمعلم فى سلوكه العام والخاص بجميع الخبرات المعترف بها فى المجتمع . وإننا لنؤمن بحرية العلم التى تسمح للتعليم بأن يكون له فرصة فى أن يجعل الأمل فى حياة الأميركيين لا مجرد وعد أو حلم فحسب بل حقيقة واقعية .

وإليك بعد ذلك ما كتبه استاذ التاريخ فى احدى الجامعات ليبين مدى ما يجب أن يتمتع به المعلمون من الحرية قال : لا تنحصر الحرية على الحق فى التعبير عن الآراء التى تكون مرجع اتفاق والتى لا يكون ثمة اهتمام خاص بشأنها ولكنها تتجاوز ذلك إلى الحق فى التعبير عن الآراء التى قد يراها البعض خطرة بل غير معقولة أو باطلة .

فالحرية تجعلنا نشارك جفرسون فى عقيدته الأساسية القائلة لا خطر من الخطأ إذا ترك العقل حرا فى محاربته له . ثم يستطرد هذا الأستاذ إلى أن يقول يعترض علينا الذين يؤمنون بهذا الرأى بأن الأطفال لا يمكنهم أن يميزوا بين الحق والخطأ . ولكن قل لى بربك متى يمكن لهؤلاء الأطفال أن يتعلموا إذا لم يتمكنوا من ذلك أثناء تربيتهم . نعم إن من الواجب مراعاة مستوى الطفل فلا يزج به فى أبحاث نظرية عن الاشتراكية أو الديمقراطية مثلا إذ أن تلك الابحاث فوق مستوى الأطفال صغيرى السن لكنا نعرف مع ذلك أن اتجاهات الأطفال حتى الصغار منهم ، تتكيف دائما تبعا للجو الذى ينشأون فيه فهو إما حر يسمح لهم بسماع مختلفة الآراء واما مقيد يضطر فيه الأساتذة إلى تعليم أشياء لا يعتقدونها وسلوك لا يؤمنون به فيحرم الأطفال من سماع أكثر من رأى واحد .

لذلك نرى أن الحرية واجبة حتى فى درجات التعليم الأولى .

ولقد كان التحرر من الظلم والاستعباد بأشكالهما المتعددة هو المحور الذى انبنى عليه ميثاق الإطلنطى . فلعلكم تعلمون أنه على إثر مقابلة الرئيس روزفلت والمستر تشرشل فى أغسطس سنة ١٩٤١ فى المحيط الأطلسى لبحث مسألة توريد الذخائر من جميع وجوهها طبقا لما نص عليه فى قانون الاعارة والتأجير سواء للقوات التابعة للولايات المتحدة أو القوات التابعة للممالك المشتركة إشتراكا فعليا فى مقاومة الاعتداء . رأى هذان الرئيسان على إثر تلك المقابلة أن من الواجب عليهما إعلان بعض المبادئ العامة فى سياسة بلاديهما لتنظيم عالم المستقبل ، فاتفقا فى ١٤ أغسطس على نشر تلك المبادئ فى ثمانية بنود أكتفى هنا بالاشارة إلى بعضها مما يمس موضوعنا . فأولا — ينص هذا الميثاق فى البند الثانى على أن لا يحصل أى تغيير فى الأراضى إلا إذا كان متفقا مع رغبة سكانها رغبة حرة ثم ينص فى البند الثالث على احترام

حق كل شعب من الشعوب فى اختيار الحكومة التى تحكمه وعلى أن يعاد إلى كل شعب حرم من حقوق سيادته وحق اختيار حكومته حقه فى ذلك ثم نص فى البند الخامس على وجوب العمل على أن يكون بين الدول تعاون تام فى المسائل الاقتصادية حتى تتاح الفرص لجميعها فى تحقيق مستوى أعلى للعمل وفى ترقية الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وأخيرا تعهدت الدولتان الكبيرتان فى البند السادس بأن يضمنا لجميع الدول أن تعيش فى أمن داخل حدودها وأن يعملا على أن يتمتع جميع السكان فى جميع البلدان بحياة حرة من الخوف والعوز .

تلك المبادئ هى التى أعلنها المؤتمرون وهى التى انضمت على إساسها عشرات الدول الى بريطانيا العظمى وأميركا ، فأين نحن فى هذا العهد من ذلك العهد القديم الذى كان يقول فيه زهير فى معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

أو ذلك العهد الذى أشار فيه المتنبى بقوله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

لا شك أننا اذا ماوضعنا نصب أعيننا كلا من المقياسين نرى أننا خطونا الى الأمام خطوات واسعة ، بل نرى أن أساس سياسة العالم قد انتقلت من طرف الى طرف وأننا صرنا فى عالم غير العالم ومدنية غير المدنية ، وخرجنا من عالم المادة الى عالم الروحانيات ومن دنيا الخطايا الى جنة الرحمة والنعيم . وإننا لنرجو إذا ما تحققت تلك المبادئ أن نرى مصر وقد ارتفع مستواها الأدبى والأخلاقى والاجتماعى ، وازدهرت ماليتها وعم الرخاء جميع جوانبها ، فالتعاون التام الذى أشار إليه البند الخامس من الميثاق يستلزم معاونة مصر فى تحقيق جميع أمانيها الاقتصادية من غير أن تتأثر الدول التى سبقتنا فى هذا المضمار بمؤثرات سياسية ، فتتمكن مصر من توسيع صناعتها بآلات تمدها بها انجلترا وأميركا ، فصانع النسيج والصباغة ومصانع الزجاج وورش إصلاح الطيارات وتشجيع الطيران المدنى كل ذلك يدخل فى ميدان التعاون الاقتصادى ، كما أن توريد الآلات الزراعية والمساعدة على حسن الإنتاج بتوفير جميع حاجياته كالأسمدة ونحوها مما تحتاج إليه الزراعة يدخل فى نفس الميدان . فهل لنا اذا ما انتهت الحرب ، أن نأمل فى أن تعاونا الدولتان العظيمتان اللتان وضعتا ميثاق الأطلنطى على تحقيق تلك الغايات فى أقرب فرصة .

وهل لنا أن نؤمل أن التعاون الصناعى والزراعى يتبعه كذلك التعاون الثقافى فتمدنا تلك البلاد بما نحتاج إليه من الآلات فى معامل الأبحاث الطبية والكيمائية وغيرها لخدمة الانسان والحيوان والاقتصاد ، بل إنى لأذهب أكثر من ذلك فى تفسير هذا الميثاق إذ أن القول بعدم احداث تغييرات إقليمية إلا إذا كانت متفقة مع إرادة الشعب الحرة يتضمن حتما منع مثل هذه التغييرات من طريق القوة — وهذا يستلزم حتما وجود قوة لا قاع

فى كل دولة من الدول — وهل يتحقق ذلك بغير مساعدة الدول التى لا تتمتع بقوة حربية كافية مثل مصر على تنظيم جيشها بجميع أسلحته بما فيها الطيران والأسلحة الميكانيكية والمدفعية ، بل ومعاونتها فى إنشاء مصانع للأسلحة والذخيرة إذ بدونها تكون البلاد عالة على غيرها محتاجة الى حماية ، وهل فى استطاعة أمريكا وانجلترا مهما صدقت نواياهما أن يكونا حرسا لجميع العالم لمنع تعدى أى دولة على أخرى ؟ أليست الحرب الحاضرة أكبر دليل على أن التعاون ضرورى بين جميع الدول صغيرها وكبيرها؟ واذا كانت انجلترا وأمريكا وروسيا احتاجت إلى معونة الدول المتحالفة لمحاربة دولتى المحور واليابان ومع ذلك فالحرب لا تزال مستعرة رغم انقضاء أكثر من أربعة أعوام ونصف عام عليها ولا يزال الناس يجهلون متى تنتهى — أفلا يدل ذلك جميعه على أن مساعدة الأمم المتعاونة حتى يكون لكل منها جيش يلائمها من ألزم الأشياء لتحقيق تعاون عالمى .؟ وهل يشك إنسان فى أن سويسرا وهى دولة حرة ذات نظام ديمقراطى لم تحافظ على حريتها ولم تخدم السلم فى بلادها إلا لأنها دولة مستعدة استعدادا حربيا كاملا ، وهل ينطق هتلر نفسه وان اختلفت الظروف على تركيا وأسبانيا والسويد ؟

أليست كل هذه الأمثلة دليلا قاطعا على أن التنظيم الحربى هو الذى حفظ على تلك الدول شيئا من حريتها ؟ وما لى أذهب بعيدا فهل يظن إنسان أن ألمانيا كانت تجرؤ على تلك الحرب لو كانت تعلم أن انجلترا مستعدة لها منذ البداية أو أن أمريكا كانت متأهبة لاقتحامها .

هذه كلها أيها السادة آمالنا فى المستقبل ولكن هل بلغ العالم من الرقى الانسانى مايجعلنا نؤمل فى تحقيق ذلك ولو سمعنا خطب الخطباء وقرأنا ما ينشر فى الصحف والمجلات لما شككنا لحظة واحدة فى تحقيق تلك المبادئ ، ولكنا إذا ما قلبنا الطرف قليلا وجدنا الحرب قائمة ورأينا حمى القتل والتدمير بغير رحمة ولا شفقة تسود فى كل مكان ثم رأينا العلماء والقواد بل والفلاسفة والكتاب يتفننون فى سبل التدمير والتخريب وفى اختراع الوسائل للفتك والدمار مما يجعلنا نسائل أنفسنا هل يمكن للانسانية إذا ما انتهت هذه الحرب أن تنسى طبيعتها وتنقلب الى ضدها ، وهل نقول ما قاله الشاعر العربى .

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

أو ليس هذا القول هو بعينه ما قاله المستر تشرشل فى إحدى مقالاته التى نشرها قبل الحرب ثم جمعها فى كتابة خطوة خطوة(Step by Step.)حيث قال "يزعمون أن التجربة تعلم الرجال ، كلا فان الرجال يكررون دائما اخطاءهم"

ولو أننا تذكرنا الحرب الماضية وأهوالها ثم تذكرنا خطب الرئيس " ولسون " الرنانة وما قاله عن تقرير حق المصير وما نادى به من حق العامل تحت أشعة الشمس ثم رأينا

ما انتشعت عنه تلك الحرب مما لا يزال نرى نتائجه الى اليوم ثم رأينا كيف قامت عصبة الأمم ثم فشلت عن تحقيق الغاية التى أسست من أجلها لارتبنا كثيرا فى آمالنا .

بل مالى أذهب بعيدا ، ألسنا نرى كيف أن النزاع بدأ يدب حول بولندا وكيف تتولد الخلافات السياسية بين أفراد الشعب الواحد فى اليونان وفى يوغوسلافيا وفى فرنسا ؟ إذن يجب أن نعرف أن العقدة أصعب من أن يكون لها حل سريع أو حل نراه فى جيلنا الحاضر فلا يزال أمام الانسانية صعوبات دونها أهوال شديدة ، وليست حرب الدول أصعبها ولا أعقدها حتى نصل الى غايتها .

أيها السادة . حينما قلنا الأمر فى التكهن بما سيكون وجدنا وجوها من الرأى مختلفة . فالحياة ليست مسألة بسيطة يسهل تحليلها والحكم عليها حكما مطردا فلكل مسألة وجوه وأشكال متضاربة وما يكون عدلا بالنسبة لفريق قد يكون الظلم كل الظلم بالنسبة لفريق آخر وما تمرره مصلحة طائفة من الطوائف قد يكون قسوة وجورا ضد طائفة أخرى وما نعتبره عدلا اليوم قد نراه ظلما غدا .

. وإنا لنرجو أن لا تكون الحقيقة مع المتشائمين وأن يكون أمل المتفائلين هو ما تتمخض عنه الحرب الحاضرة . ومهما يكن رأينا فيما انتهت عليه الحرب الماضية وإنها لم تحقق كثيرة مما كانت تؤمله الشعوب الصغيرة مما وعدت به فى إبانها ، فإنها مع ذلك كانت خطوة إلى الأمام ولا شك أن مانراه اليوم فى مصر وفى العراق وفى سوريا ولبنان فيه أكبر حجة على أن شجرة الحرية إذا ما غرست لا تلبث أن تزدهر وتنمو مهما صادفها من عواصف أو اعترضها من أهوال فهى لابد محطمة لكل ما يلقى فى سبيلها من أغلال إلى أن تصل إلى نموها الكامل وتؤتى ثمرها حلوا شهيا . فنحن إذا لم نستطع أن ندرك كل غايتنا بمجرد انتهاء هذه الحرب فإننا واصلون حتما إلى الكثير من آمالنا وما علينا إلا أن نجتهد وأن نسعى وأن نعمل ونثابر فى العمل حتى يكون غدنا خيرا من أمسنا وأن نخطو بمواطنينا و بلادنا خطوة واسعة إلى الأمام لكى تتحقق لها العدالة والحرية فى حياة الفرد وحياة المجتمع . فإذا ارتفعنا فى أفقنا فوق الأهواء العردية وفوق الشهوات الضارة استطعنا أن نبنى لأنفسنا و بلادنا مجدا ان لم يكن له بريق يأخذ الأبصار لأول وهلة فإنه يكون دائم الأثر ثابت البنيان .

محمد بهى الدين بركات